

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢ —

الديانة المصرية

يجمع الباحثون على أن الديانة المصرية هي أولى الديانات البشرية التي ظهرت على وجه الأرض من غير استثناء . ويؤكد بعضهم تأكيداً قاطعاً بأنه لم تظهر ديانة في الدنيا إلا ولها في عقائد وادي النيل عنصر ، وأن كل الديانات الانسانية ليست إلا فئاتا متساقطاً حول مائدة بلاد الفراعنة الذين سبقوا جميع سكان الكرة الأرضية إلى حل لواء المعرفة وفتح كثير من مغلفات العلم وحل ألغاز الكون . ومن أشهر العلماء الذين يعتقدون هذه الفكرة العالمان الانجليزيان : « بى » و « البيوت سميث » . أما الأستاذ « دينيس سورا » فيؤمن بالفكرة الأولى وهي سابقة الديانة المصرية على جميع الديانات الانسانية ، ولا يستبعد أن تكون جميع التطورات الدينية قد وجدت في مصر من الوثنية المحضة إلى الروحية المغالية في التجردية ، بل إلى اللاأدرية ، المطلقة ، ولكن الذى يعارض فيه هو أن بقية الشعوب القديمة قد تغذت من تساقط فئات المائدة المصرية ، كما يقول بعض العلماء ؛ وبراهينه في هذه المعارضة هي :

أولاً : أنه لم يثبت عن المصريين أنهم بعثوا بعثات إلى البلاد الأجنبية للتبشير بديانتهم حتى انتشرت بين ربوع تلك الأمم .

ثانياً : أن الآثار المصرية التي يعتمد عليها العلماء في حكمهم هذا لا تؤيدهم في دعواهم إذا تأملوا في الأمر تأملاً دقيقاً ، لأنها ليست إلا رموزاً وطلاسم قصد بها كاتبوها غايات دينية محضة لا تسجيل حقائق علمية ولا إذاعة أسرار الدين وإبانة تطوراته المختلفة . وإذا ، فلا يمكننا أن نعتمد على تلك الآثار

في حكمنا ، وفوق ذلك فإن أسرار العقيدة المصرية الأصلية لم تدع بين أفراد الشعب إلا في عصور التدهور أى حوالى القرن السادس قبل المسيح ، وبناء على هذا يكون العامة - وهم الذين يحتكون بالأجانب في المعاملات - قد ظلوا جاهلين بحقيقة هذه الديانة حتى القرن السادس أى بعد ظهور كثير من الديانات الشرقية . وبهذا يتفق تأثير الديانة المصرية على تلك الديانات .

ولا ريب أن البرهان الأول في رأينا برهان ضعيف ، لأن الديانة كما تنتشر بوساطة المبعوثين المختصين . تنتشر كذلك عن طريق الاحتكاكات التجارية والسياسية والاجتماعية . ولا جرم أن هذا كان موجوداً وثابتاً الثبات كله . أما ادعاء أصحاب هذا الرأي جهل الشعب بالعقائد المصرية حتى القرن السادس فهو غير صحيح ، لأن الأدب المصرى - وهو مرآة الحياة الاجتماعية بما تحتويه من دين وأخلاق وغيرهما - قد أنبأنا في مواضع تجل عن الحصر بكثير من أسرار العقيدة ، أضف إلى هذا أن الرسوم والنقوش التي تكتظ بها المعابد تذيب أكثر هذا الأسرار الدينية ، وليس سرا ما يغلبه الكهنة والأمراء ، ورجال البلاط ، وكبار الموظفين ، والرسامون والعمال . على أنه إذا جازت سرية مالدى هؤلاء جميعاً - وهي بعيدة - فلا تجوز سرية مالدى الأذباء والكتاب الذين أفعوا أسفارهم بوصف هذه المعلومات بأسلوب ضاف مسهب . وإذا فالأرجح - إن لم يكن مؤكداً - أن جميع الأمم القديمة من غير استثناء هي تليذات مصر في الدين كما هي تليذاتها في العلم والأدب والفن .

غير أنه بالرغم من صحة هذه النظريات الثلاثة بأخذ الأمم الشرقية دياناتها عن مصر في نظرنا يجب علينا أن نخطو إلى إثباتها خطوات حذرة متبصرة تأتلف مع تلك المعلومات البسيطة التي اكتشفها المستمضون ، منتظرين ما تأتى به المكتشفات المقبلة عن هذه الأمة العريقة التي سمي العلماء بلادها بحق : « أرض الأسرار والعجائب » .

فراصة الجواهر وأسبابها عند المصريين

رأى علماء أوروبا في العصور الحديثة ، الآثار المصرية مكتظة بالحيوانات المقدسة ، ورأوا كذلك بعض الشعوب

شديدة وصرحوا بأنها تنقصها الأسانيد العلمية التي يعتمد عليها من ناحية ، وبأنها غير متناسقة الجزئيات من ناحية أخرى ، واستدلوا بأدلة على أن منشأ تقديس الحيوانات عند المصريين ليس هو « التوتيميسم » وإنما هو سبب آخر سند كره هنا . وإليك شيئاً من هذه الأدلة :

(١) إن المصريين القدماء كانوا يبيعون زواج الاخ من أخته مع أن جميع قبائل التوتيميسم تعد هذا العمل أكبر جرائمها التي تستوجب السخط والغضب ، بل إنها مجمعة من غير شنود واحد منها على أن زواج الرجل بامرأة من البطن الذي هو منه محرم ، وهذا خلاف واضح يجعل المشابهة بعيدة كل البعد

(٢) إنه قد عثر على كثير من القبائل المتوحشة تجعل « التوتيميسم » جهلاً تاماً ولا تنظر إلى الحيوان إلا بمثل الاغضاء والاهمال اللذين ينظر بهما إليه أرق المتدينين العصريين

(٣) إن المصريين القدماء كانوا يعتقدون أن عنصرهم هو السماء فلا يمكن أن ينتسبوا إلى الانسان العادى فضلاً عن الحيوان

(٤) إنهم صرحوا في عدة مواضع من آثارهم بأسباب تقديسهم لتلك الحيوانات ، ولا يمت أى واحد من هذه الأسباب بصلة إلى تسلسلهم من الحيوان . وإذاً ، فلا يمكن أن نسمي تقديس المصريين للحيوان : « توتيميسم » إلا إذا خرجنا بهذه الكلمة عن معناها الاصلى ، وجعلناها مرادفة للتقديس فحسب بدل مرادفتها للتقديس الناشئ عن البنوة أو القرابة .

على أن الذين يوافقون من المستعصرين على تسمية تقديس المصريين للحيوان « توتيميسم » يجمعون على قصر هذه « التوتيميسمية » على عصور ما قبل التاريخ كما يجمعون على وجوب فصل عقائد تلك العصور « التوتيميسمية » عن عقائد العصور التاريخية الراقية .

أما منشأ هذه القداسة فهو يرجع — في رأى العلماء المحققين — إلى أنه قد حدثت حروب بين القبائل المصرية في عصور ما قبل التاريخ تجلت عن انتصار بعض هذه القبائل وانهازم البعض الآخر ، فرمز المنتصرون لبلادهم ببعض الحيوانات القوية ولقرى خصومهم المنهزمين ببعض الحيوانات الضعيفة ، فبقيت هذه الرموز دالة على معانيها رداً من الزمن

البربرية المتوحشة في جنوب إفريقيا وفي أطراف آسيا وأمريكا تقدم الحيوانات في هذا العصر الذي نعيش فيه تقديساً لا يقل عن تقديس المصريين إياها في العصور الغابرة ، فالتخذعوا لهذه المشابهة السطحية وتوهموا أن تقديس المصريين القدماء للحيوانات هو من نوع تقديس المعاصرين المتوحشين لها ، وحسبوا أن التقديس المصرى هو : « Totemisme » توتيميسم ، وهي كلمة تدل على قداسة الحيوان الناشئة عن اعتقاد القبيلة في قرابتها أو صلتها الوثيقة بهذا الحيوان ، وهذا « التوتيميسم » موجود حقاً عند المتوحشين العصريين ولا سيما في أطراف أمريكا . وقد عني العلماء باستيطان دواخل هؤلاء المتوحشين ، فسألوه عن هذه الحيوانات المقدسة فأجاب البعض بأنها أجدادهم الاولون ، وأنهم حين يقدسون هذه الحيوانات لا يزيدون على أنهم يجلون عنصرهم الأول ويحترمون دماء أسلافهم التي تجري في عروق هذه الحيوانات . ورد البعض الآخر بأنها أقارب أجدادهم ، وأكد البعض الثالث أنها من خلفاء أولئك الأجواد ، وأعلن الرابع أن الحيوان المقدس عنده إنما هو إله قبيلة .

وقد شاهد العلماء أيضاً في بعض الجهات المتوحشة القبيلة تنقسم إلى أربعة بطون : البطن الأول يقدس الكلب ، وهو جده الأعلى ، والثاني يقدس الخنزير ، وهو عنصره الأول ، والثالث يقدس الوزغ ، وهو مبدؤه الأساسى . والرابع يقدس النمساح ، وهو رأس الأسرة الأولى من هذا البطن .

فلما رأى العلماء هذا التقديس للحيوان عند الشعوب المتوحشة ورأوه عند المصريين الغابرين ، جزموا بأن أولئك هؤلاء متشابهون في عقيدتهم وتقديسهم لا يفرق بينهم إلا هذه العصور المترامية الأطراف

وقد أفاض بعض هؤلاء العلماء في هذه الموازنة إفاضة أنزلت آراءهم منزلة خيال الشعراء وأحلام النائمين . وأبرز هؤلاء العلماء الحالمين هو الأستاذ « فرايزر » (١) الانجليزى مؤلف كتاب « الغصن الذهبى »

وقد عارض كثير من العلماء الأدقاء في هذه المشابهة معارضة

(١) يلاحظ أن كثرة الآراء الخاطئة التي يذيعها الأستاذ سلامة موسى مستقاة من مؤلفات هذا العالم الخرقا .

سر مجهول

في تحريم لحم الخنزير

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

في التشريع الإسلامي أسرار لا يعلمها إلا من طهر الله قلوبهم لحكمته ، وألهمها من العلم ما لا يقاس به شيء عندها . وقد كان الناس يظنون أن الحكمة في تحريم لحم الخنزير تعبدية إلى أن أخذوا في هذا العصر ياتمسون حكم التشريع ، ويعنون بالبحث عن فوائده ومزاياه ؛ فحينما بحثوا في حكمة تحريم لحم الخنزير ظنوا أنه استثناء من أصل أحل لحمه ، فأخذوا يبحثون في تحريمه عن حكمة خاصة به . وقد ذكروا من ذلك أن الخنزير يصاب في كثير من الأحيان بديدان تنتقل منه إلى من يأكل لحمه ، وتترى في جسده ، فتكون منها الدودة الوحيدة الخطيرة ؛ وذكروا أيضاً أن في الخنزير ديداناً أخرى تترى في لحمه يقال لها (تريشين) ، ومن عاداتها أن تكون محاطة بكيس ينتهي أمره بأن يتحجر فتموت تلك الدودة فيه ، ولكن هذا لا يكون إلا بعد أن تلد ألوفاً لا تحصى من الديدان ، وكل دودة منها ينتهي أمرها إلى مثل ما انتهى إليه أمر الدودة الأولى ؛ فإذا أكل الإنسان لحم الخنزير نزلت هذه الأكياس الحجرية الحاوية لهذه الديدان إلى معدته ، وذابت فيها بتأثير العصارة المعدية ، فتخرج منها ديدانها وتكاثر في جسمه وتسكن في لحمه ، وهذا من أقبح الأمراض وأشنعها وناهيك بمرض يكون فيه لحم الإنسان كله مساكناً لتلك الديدان المؤذية .

وقد يكون هذا من ضمن الأسباب التي حرم الله بها لحم الخنزير ، وإن كان لا يوجد له نظير فيما حرم الله أكله علينا ؛ ولكن يبقى بعد هذا أن يقال : هل حرم الله علينا الخنزير لأنه خنزير ، أو لأنه من جنس السباع التي حرم علينا أكلها لحكمة عظيمة سنبينها ؟ ولقد سألت بعض المخالفين منذ سنين

ثم تعاقبت الأجيال فنسبت الأسباب الأولى وبقيت أسماء تلك الحيوانات عالقة بهاتيك القرى ورامزة لها في شكل خنى غامض . ولما كانت النفوس البشرية مجبولة على تقديس ما تجهله فقد قدست مصر تلك الحيوانات دون تفريق بين قوتها وضعفها . ولما ارتقت مصر نوعاً ، ونظمت بلادها وقسمتها إلى مقاطعات وأنشأ سكان كل مقاطعة على حدة راية خاصة بهم ظل بعض تلك الرموز القديمة باقياً ونقش كل منها على مقاطعته . كما اختفى البعض الآخر الذي لأمر ما لم يصلح للحياة ، ولكن ذلك البعض الذي بقي لم يزل جامداً على راية حاله الأولى ، وإنما تطور انسجاماً مع المدينة الحديثة مثل البازي الذي كان في عصور ما قبل التاريخ رمزاً لأحد الانتصارات الغابرة ثم أصبح في العصور التاريخية رمزاً للاله « هوروس » إله القوة والخير والبركة ، وكالبقرة التي كانت كذلك في العصور الأولى رمزاً لأحد تلك الانتصارات التي سجلت على القرية المنهزمة ضعفها ، فرمز إليها بحوان صغير كالتمساح مثلاً ثم أصبح رمز البقرة رمزاً للاله « هاتور » . ومع طول الزمن اندمج بعض المقاطعات في البعض الآخر وأصبح الكثير منها تحت إمرة إله واحد كإحداث في الماضي أن أصبح المنهزم تحت إمرة المنتصر ، وهذا هو ما نرى تقديس الحيوانات في مصر القديمة .

محمد غزوب

« بنع »

لطلاب البطالوريا :

البيان الطبيقي

للاستاذين محمد برانق وحسن علوان

يشتمل هذا الكتاب على ذكر القواعد موجزة مع تطبيقات وافية في « البيان والبدع » وتمرينات عامة مرتبة على حسب هذا المنهج وفي آخره مفتاح عن الاسئلة مع ترجمات لمعظم الأعلام التي وردت فيه

الثنى

يطلب من ملتزمة نسره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر